«١٤»

بدر بن عمر الكثيري

نصير الزيدية - اختلافه مع ابن أخيه - تدخل الإمام في الأمر - مؤامرة - السيف أصدق من الكتب - النفير للحرب - الأخطار التي تعرض لها الجيش - آخر مفاوضة تفشل - بدء القتال والمعركة الفاصلة - السلطان يطلب الأمان - بدر بن عمر يستعيد سلطنته - اختفاء السلطنة الكثيرية.

❖ نصير الزيدية:

السلطان بدر بن عمر بن بدر أبي طويرق تولى السلطنة سنة ألف وأربع وعشرين هجرية بعد أخيه عبدالله بن عمر الذي خلع نفسه واعتزل السياسة، قال عنه السيد محمد بن هاشم في كتابه «تاريخ الدولة الكثيرية»: «كان السلطان بدر بن عمر آية في الجود والسخاء، يحب الخير وأهله، ويكره الشر وأهله، أقام للشرع الشريف بحضرموت محاكم عديدة، وبنى عدة مساجد منها مسجد الحصن الذي بسيئون، ومسجد السلطان الذي هو شمالي حصن الرّناد بتريم ووقف عليها أموالاً كثيرة كافية».

«ولم تكد تستقر قدما السلطان بدر بن عمر في الولاية حتى تصدى له ابن أخيه بدر بن عبدالله بن عمر بالأذى وإذكاء المكايد حوله، فلجأ إلى موالاة أئمة اليمن وأخذ يكاتبهم ويستنجد بهم، وأشيع عنه اعتناقه للمذهب الزيدي فازدادت الهوة اتساعاً والحالة حرجاً»[1]، وساعدت هذه الإشاعة

(١) تاريخ الدولة الكثيرية.

على نفور الناس منه.

وقد ذكر الجرموزي أنه لما حج السلطان عبدالله بن عمر سنة ألف وأربعين واستخلف أخاه بدراً تبادل هذا مع الإمام الرسائل والمكاتبات في غيبة أخيه، ويمكن القول بأن بدر بن عمر كان مخلصاً في ولائه للزيدية شديد التعلق بهم، بصرف النظر عن الظروف التي مهدت لتوطيد هذه العلاقة.

وبدر بن عمر هذا هو جد آل عيسى بن بدر، الذين كونوا لهم دويلة منفصلة عن سلطنة آل عبدالله بن عمر، وكان آخر سلطان في آل عيسى بن بدر هو منصور بن عمر الذي قتلته يافع في شبام سنة ١٢٧٤هـ.

اختلافه مع ابن أخيه:

ومهما قيل في أسباب الخلاف بين بدر بن عمر وابن أخيه بدر بن عبدالله فإن الأخير كان طامعاً في السلطنة ويرى من نفسه القدرة والكفاءة لتصريف سياسة البلاد، وقد استغلّ علاقة عمه بالإمام في تنفير آل كثير عنه، وكذلك في إثارة الرأي العام في حضرموت الذي لا يميل إلى الزيود لاختلافهم معهم في المذهب والعقيدة.

وهكذا كانت سياسة بدر بن عبدالله إبعاد الزيدية عن التدخل في شؤون السلطنة الكثيرية واستقلاله بحكم البلاد، وقد طفق منذ تولي عمه السلطنة يجمع آل كثير والشنافر ويعقد معهم المؤامرات السرية ضد عمه، ويهول لهم الأمر في موالاته للزيدية، ويزعم لهم أنه سيسهل لهم احتلال حضرموت، وساعده في ترويج هذه السياسة والدعاية لها جماعة من العلويين وغيرهم من العلماء ورجال الدين.

قال الجرموزي: «وكان هوى آل كثير وميلهم مع أولاد السلطان عبدالله بن عمر، فاحتال هؤلاء على عمهم وقبضوا عليه وعلى أولاده وجميع ما يملكه وجعلوه في حصن لهم، وحلف آل كثير للسلطان بدر بن عبدالله،

فساس البلاد وأطاعه أهلها، وكانت له ملابسة للسياسة ومراعاة لأسباب الرئاسة فكان أكمل من عمه وأنهض، فأحبّه أهل تلك الجهات ولكونه لم يوال الإمام عليه السلام...».

وقيل: في كيفية الهجوم للقبض على السلطان بدر بن عمر - إن نحو أربعين من آل كثير وعشرة من مواليهم توجهوا إلى حصن سيئون من بين المدعوّين في وليمة أقامها السلطان بمناسبة زواج بعض أقاربه، ولما فتح لهم الباب دخلوا بعنف، وفتكوا بمن قاومهم حتى دخلوا على بدر بن عمر فاستسلم بدون مقاومة، وحاول ابنه محمد المردوف المقاومة فانتهره أبوه وأمره بالاستسلام فقيدوهما معاً ثم أرسلا مكبلين بالأغلال إلى حصن مريمة، حيث سجنا هناك، ثم نقلا من مريمة إلى تريس، وكان ذلك سنة ١٠٥٨هـ.

تدخل الإمام في الأمر:

علم الإمام المتوكل إسماعيل بالقبض على بدر بن عمر وأنه إنما اعتقل بجريرة موالاته له، فعدّ ذلك تحدّياً له وإهانة موجهة إليه، وكتب إلى بدر بن عبدالله يأمره بإطلاق سراح عمه، فأجابه هذا برسالة في شهر رمضان سنة ١٠٦٥هـ تتضمن إجابة الإمام إلى ما طلب من إطلاق سراح عمه والتنازل له عن ولاية ظفار ومتعلقاتها إلى آخر رسالته التي ملأها بعبارات التودّد والإخلاص وإظهار الولاء والطاعة، الأمر الذي وصفه الجرموزي بأنه لون من التلوّن والمداجاة.

واعتذر بدر بن عبدالله للإمام من اعتقال عمه بما يلي من نص رسالته للمتوكل إسماعيل:

«فأحل بنا من ضيق المعاش ما يهون مقاساة الموت دون مقاساته وصبرنا على ذلك حتى عيل منا الصبر، ولما خشينا على أنفسنا الهلاك قدمنا على العم بدر وأولاده وما ظننا أن نسلم من قبل ذلك الأمر، ولما

ضممناهم قمنا بهم وبمكالفهم ومن يلوذ بهم وقمنا لهم بالواجب من النفقات وغيرها... وما كان سبب طلوعنا على العم بدر إلا خوفاً على أنفسنا... وربما رفعوا إليكم أعداؤنا وحسادنا أن لا سبب لثأرنا على العم إلا قيامه بطاعتكم، فلا والله العظيم إنما السبب ما أوضحناه لكم في هذا المكتوب».

وهكذا لا يتردد السلطان بدر بن عبدالله في إعلان الولاء والطاعة في كل رسائله التي يبعثها للإمام إذ لم تكن عنده القوة الكافية للجهر بآرائه السياسية في إبعاد التدخل الزيدي عن شؤون حضرموت، وقد كانت حكومة اليمن من جانبها تسعى جاهدة لربط حضرموت باليمن سياسياً وإدارياً، وهذه الرسالة الآتية صريحة في تمسك الإمام بحقه في الإشراف المباشر على شؤون السلطنة الكثيرية وحتى في فرض الرجوع إلى مذهب أهل البيت في الأحكام والعقائد، كأنه يريد العمل بالمذهب الزيدي بين أهل حضرموت الشوافع، فقد جاء في رسالته إلى السلطان بدر بن عبدالله بن عمر المؤرخة سنة ١٠٦٧هـ ما يلي:

«وقد أرسلنا إليكم القاضي شرف الدين الحيمي لأخذ البيعة والعهد منكم، وليساعدكم في أمور الإصلاح ونشر أحكام الشرع، ونصب النواب والحكام، وإحياء السنة ومحو آثار البدع، والتذكير بحق الله ورسوله وحق أهل بيته المطهرين والالتجاء إلى أهل البيت في الأحكام الشرعية والعقائد، وأخذ ما أمر الله بأخذه من نحو الصدقات والمظالم، وصرف القدر الذي أمرنا بصرفه في مواضعه، وإيصال ما بقي إلينا لنضعه حيث أمر الله».

وقد وصل القاضي الحيمي إلى هينن بتاريخ ٧ جمادى الأولى سنة ١٠٦٧هـ، فلقي السلطان بدر بن عبدالله هناك، وكان قد جاءها لقضاء بعض مهام السلطنة فسلم إليه الرسالة والعهد، ثم انتقلا إلى سيئون عاصمة السلطنة حيث قرأ القاضي الحيمي على الخاصة والأعيان عهد الإمام

المتوكل للسلطان بدر بن عبدالله.

وتحسنت العلاقات في الظاهر بين الإمام وبين السلطان بدر بن عبدالله بعد إطلاق سراح عمه وتوليته حكم ظفار ومتعلقاتها وتبودلت الهدايا والرسائل، وهذه صورة من رسائل بدر بن عبدالله للإمام في رمضان سنة ١٠٦٧هـ.

«والصادر إلى حضرتكم الشريفة العلية الإمامية المحمدية من الخيْل الكرام باسم الهدية ثلاثة رؤوس: فمنهن فَرس نعامة صفراء مليحة، ومنهن فرس كحيلة حمراء جيدة، والثالث من الرءوس سميطان أصفر، تفضلوا بقبول تلك الهدية، وإن كانت تافهة غير سنيّة، وكذلك الصادر من الخيل الجياد في مقابل ما تقرر علينا لبيت المال من الزكاة والفطرة ثمانية رءوس حسبما ذكرناها لكم في كتاب مفرد بيد القاضي الجليل، ثم قبيل ما تقرر لكم من محصول بندر الشحر المحروس من الرسم الهندي وما تقرر مما رسم على البانيان في مدة ثلاثة شهور ٢٢٠ و٣٠٠ حرف و١٥ ذهب أحمر: الذهب الأحمر محسوب بستمائة وثلاثين قرشاً والذي من الموسم الهندي سنة ١٠٦٧هـ وكذا الذي على البانيان ٨٥٠، ومرسل إليكم هدية باسم محمد ابن الإمام رأسان من الخيل، ولأخيه صفي الدين رأسان أيضاً، وإليه من ولدنا عبدالله رأس من الخيل وحلية لفرسه هدية، ولأخيه حسام الدين حصان، والسلام».

❖ مؤامرة:

بعد أن تولى بدر بن عمر حكم ظفار حدث أن احتجز السلطان بدر بن عبدالله لنفسه مزرعة في ظفار؛ بحجة أنها كانت لأبيه فعدّ عمُّه ذلك تحككاً به وتدخلاً فيما فوض إليه من قبل الإمام، وعاد المتوكل إسماعيل يتدخل في النزاع ويأمر بأن تكون ظفار خالصة لبدر بن عمر، فينفذ أمره ويكف بدر بن عبدالله عن التعرض للمزرعة، ويكتب للإمام رسالة جاء فيها:

«وأمرنا الخادم أن يتركها له وإن كانت لنا؛ لأن قصدنا جبره في كل حال، ولأن الحال واحد، حال ولد ووالد، ربما تتوهمون أننا نشاركه في شيء من منافع ظفار حيث تعلمون أنا نسفّر شيئاً من المراكب إليها لأجل النوال، ونشتري اللبان مثل الأجانب، والآن إن رضي الوالد - حفظه الله - أننا نترك تعهد البندر بمراكبنا مثل تعهد الأجانب تركناه ابتغاء لما فيه رضاكم ورضاه».

والمعروف أن السلطان بدر بن عبدالله من أغنياء سلاطين آل كثير، وكان يملك في ظفار غابات من اللبان ومعامل واسعة لتصفيته وشحنه في سفنه الخاصة لبيعه في الثغور المجاورة، وكان يملك في حضرموت غيل تاربة الذي يساوي عشرات الألوف من الريالات والذي يدر عليه أموالاً وافرة، فكان من الطبيعي أن يترك استقلال عمه بشؤون ظفار أثراً سيئاً في نفسه يحمله على التخلص منه واستعادة هذه المنطقة الغنية وضمها إلى سلطته التي تخضع له مباشرة.

لذلك اتفق السلطان بدر بن عبدالله مع أخيه جعفر على احتلال ظفار بالقوة وطرد عمهما منها، واحتالوا في تنفيذ مؤامرتهم هذه - كما تقول بعض الروايات - بطريقة فيها كثير من الغش والخداع، فقد أوعز بدر بن عبدالله إلى أخيه جعفر أن يكتب إلى عمه بدر مظهراً له أنه سيسافر إلى الهند بطريق ظفار، وأنه سيقدم عليه ماراً بطريق سماها له، فخرج بدر بن عمر للقائه، وكان قد ارتاب في ما كتب إليه جعفر وصدق ظنه، فإن جعفراً قد سلك بمن معه من جنود طريقا غَير التي سماها لعمه وأسرع بهم إلى ظفار، واستولى على الحصن وقتل ابن عمه، وهكذا تم تنفيذ المؤامرة التي دبرت في سيئون عاصمة السلطنة.

ولم يكن بُدٌّ للسلطان المخدوع من الهرب بطريق البحر، فقد سافر إلى بلاد المهرة ثم منها إلى عدن، حيث واصل سفره إلى اليمن لمقابلة الإمام

والتحدث إليه بكل ما حصل من بدر بن عبدالله وأخيه جعفر، فأحسن الإمام استقباله وتلقاه الجند ومن بحضرته من العلماء ونزل ضيفاً كريما عًلى الإمام.

❖ السيف أصدق من الكتب:

استطاع الأمير بدر بن عمر أن يوغر صدر المتوكل بما أفضى إليه من أحاديث تتعلق بابن أخيه بدر بن عبدالله وأياديه الخفية في محاولة التخلص من سيطرة الإمام على السلطنة الكثيرية والحد من سلطته مهما كانت اسمية ومرنة، ولم يتردد المتوكل إسماعيل في صحة الأنباء التي أفضى بها إليه الأمير المطرود، فكتب إلى السلطان بدر بن عبدالله يستفسر عن الأسباب التي حملته على الإقدام على تدبير الحيلة المكشوفة لاحتلال ظفار والاستهانة بأوامر البيت الهاشمي في اليمن، فرد عليه السلطان بدر بن عبدالله كعادته في المراوغة والتملص يتنصل من تبعة حادثة ظفار ويلقي مسؤوليتها على أخيه جعفر، وقال: إنه لم يكن على علم بما حدث.

وتبودلت بينه وبين الإمام عدة رسائل لم تؤثر في جلاء الموقف وإقناع الإمام.

وفي رمضان سنة ١٠٦٩هـ أرسل بدر بن عبدالله رسالة إلى الصفي أحمد أحد كبار رجال الدولة من الزيود الهاشميين لا تخرج في معناها وأسلوبها عن الرسائل التي كان يبعثها إلى المتوكل إسماعيل، وكان الصفي أحمد قبل ذلك طامعاً في انقياد السلطان بدر ولكنه يئس منه أخيراً، وقال بعد قراءته الرسالة: قد غششنا الإمام بانتظارنا لهذه المكاتبة التي هي خديعة لا محالة، ثم التفت الصفي أحمد إلى رسول السلطان بدر وقد سلمه رداً على الرسالة قائلاً: قل للسلطان هذا كتابي وبعده ركابي وسيفي هذا، وأراه السيف، وبهذا الإنذار النهائي انتهت المفاوضات الكتابية، وتحرجت الحالة وأصبح الطرفان في حالة حرب.

❖ النفير للحرب:

لم يكن بُدٌّ من استعمال القوة لحل ما عجزت المفاوضات والمكاتبات عن حله، فأصدر الإمام المتوكل أمره بالتعبئة العامة ودعوة الناس في اليمن إلى الحرب، وأسند القيادة العامة للجيش إلى الصفي أحمد بن الحسن أحد كبار رجال الزيدية والذي سبق ذكره.

تحرك الصفي أحمد بمن حضر معه من الجند في يوم الخميس ١٨ شوال سنة ١٠٦٩هـ، ولم يكد يصل إلى موضع يقال له «المربك» من أعمال جبل اللوز حتى اجتمع إليه من الجنود ألفان ومن الخيل مائة، وأمده الإمام بأدلاء خبراء يهدونه الطريق إلى حضرموت، ثم واصل سيره ماراً بأهم المناطق التي يوجد بها كثير من القبائل الراغبة في الالتحاق بالجيش، فكان كلما مر بقبيلة انضم إليه عدد من رجالها، فانضم إليه كبار رجال خولان وأشراف الجوف ومشايخها وقبائل المعطّة وعبيدة وغيرهم.

وكان المتوكل إسماعيل يواصل إمداد الصفي أحمد بالمال والرجال فيلحقون به أثناء الطريق، فقد جهز ابنه محمداً في نحو ثلاثة آلاف يتسلح أكثرهم البنادق وبينهم ما يقرب من مائة وخمسين فارساً، وأرسل إليه من رداع نحواً من خمسين فارساً وأربعمائة راجل، ومن أصحاب الأمير علي ابن المؤيد أربعة وعشرين فارساً، ومن كوكبان عسكراً وخيلاً كثيراً، ومن أصحاب محمد بن الحسين زهاء ألف جندي، ومن «الحيمة» أكثر من ألف جندي أيضاً جُل سلاحهم البنادق، ووَكل نظامهم إلى ابنه محمد، وضم إليه العلامة أحمد بن الهادي والرئيس الكبير شرف الدين بن مطهر، والفقيه المجاهد علي بن صلاح الحملولي وغيرهم من السادة ورؤساء العسكر.

وأمر الإمام أيضاً السيد عز الدين بن دريب والقاضي الحسن بن أحمد الحيمي والقاضي الهادي الحارثي أن يسيروا بمعية السلطان بدر بن عمر الكثيري وأولاده فيلحقوا بالصفي أحمد، وكان الإمام قد أحسن إلى

السلطان بدر كثيراً وأجزل له العطاء وطيب خاطره.

كانت هذه الإمدادات تصل إلى القائد الأول متقاطرة وهو يواصل سيره في طريقه إلى حضرموت، وكانت آخر هذه الإمدادات قد وصلته وهو بـ«واسط» من بلاد العولقي، ومن هناك استأنف سيره بعدما رضي عن كثرة جيشه ووفرة عدده وكامل عدته.

❖ الأخطار التي تعرض لها الجيش:

بمجرد ما نتصور أن الصفي أحمد قد قطع بجيشه المسافة ما بين الموضع الأول الذي تحرك منه إلى أن وصل حضرموت في نحو عشرة أشهر نعرف مدى المصاعب والمشقات التي يتعرض لها جيش كثيف كهذا يمر بمناطق لا يوجد فيها ما يلزم لتموين الجيش ودوابّه من ماء وغذاء، فقد اضطر الجيش أن يحفر في بعض الطرق التي يمر بها آباراً بلغ عمقها إلى مائتي ذراع لسد حاجة الجيش إلى الماء، وكان الخطر الأكبر الذي تعرض له الجيش عندما كان يمر بجبل السوط بعدما ارتحل من ميفعة قادماً إليها من بلاد العوالق وبلاد الواحدي التي من بينها ميفعة أيضاً، فقد نفد ما كان مع الجيش من زاد وهلكت الجمال ووقع الجيش في مجاعة حتى إنهم كانوا يأكلون ما عَيِيَ من الجمال بدون نحر.

ولكن الشيخ العمودي حاكم دوعن وصديق الزيود الذي قدم للقاء الجيش ومساعدته عندما رأى ما فيه الجيش من شدة، أمر القبائل التابعة له بجلب كل ما قدروا عليه لتموين الجند فأتوهم بالطعام من الحبوب والدوم والسمن واللبن والمواشي وباعوه منهم وأضافهم الشيخ العمودي بثمانمائة جمل وعدد كبير من البقر والغنم.

وأقام الجيش في وادي يبعث ثلاثة أيام كان معظم زاده فيها من الدوم «ثمر السدر» الذي كان يرسله إليهم الشيخ العمودي، فكانوا يأكلونه مع نواه من شدة الجوع.

وكما تعرض الجيش لأخطار الجوع، وقلة الماء، وصعوبة الطريق كانت بعض القبائل الموالية للسلطنة الكثيرية والمجاورة لحدود حضرموت الغربية تشاغب الجيش اليمني وتفتك برجاله كلما وجدت إلى ذلك سبيلاً.

❖ آخر مفاوضة تفشل:

في الوقت الذي كانت فيه جيوش الإمام تزحف إلى حضرموت كانت رسل الإمام تفاوض السلطان بدر بن عبدالله وتطالبه بأن ينفذ ما تعهد به من إرسال حملة إلى ظفار؛ لتأديب أخيه جعفر واسترداد ظفار منه والقبض عليه أو طرده، فيعتذر السلطان بدر بأنه لا يقبل أحد من آل كثير الاشتراك في هذه الحملة بحجة أنهم لا يستطيعون أن يغادروا بلادهم لتخلفهم فيها الجنود الإمامية، لذلك فهو يقترح أولاً إيقاف الزحف وأن تعود الجنود إلى اليمن على أن يتكفل هو بدفع جميع النفقات التي استهلكها الجيش، ولكن الإمام يصر على استرداد ظفار والقبض على الأمير جعفر، فتفشل المفاوضات، وتعود رسل الإمام بهذه النتيجة.

وأيقن السلطان بدر بن عبدالله بأن جيوش الزيود ستكتسح بلاده، فاستشار خاصته وذوي الرأي من أنصاره العلويين وغيرهم فأشار عليه البعض بالتسليم وعدم المقاومة، وحثه الأكثرون على قتال الزيدية وحربهم، ففضل المقاومة واستعد للقتال.

❖ بدء القتال والمعركة الفاصلة:

انحدر الصفي أحمد بجيشه من ريدة الديِّن إلى وادي حضرموت حيث عسكر بالقرب من الهجرين، وكان السلطان بدر قد حشدَ جنوده قريباً من سَدْبة، وبينما كان جنود الإمام في معسكرهم خرج بعض من الجند في يوم الجمعة آخر يوم من شهر رجب سنة ١٠٧٠هـ يطلبون العلف لدوابهم حتى قاربوا مدينة الهجرين فرماهم حاميتها، وكانوا سبعين من حملة البنادق، فتداعى من كان بالوادي من جنود الإمام وحملوا عليهم واستولوا على البلد

بعد أن قتلوا حاميتها وغنموا ما كان فيها من السلاح وغيره.

وخرج السلطان بدر بن عبدالله من هينن على رأس عدد غير قليل من جنوده قاصداً إلى معسكره في سدبة، وكانت قد وصلته الإمدادات من عمد والشحر وغيرها، فشجع جنوده واستعد للقاء جيش الإمام، وتحرك الصفي أحمد بجيشه من يوم الأربعاء لأربع خلون من شعبان، وأمسى ليلة الخميس على ميلين أو ثلاثة من جند السلطان، وأصبح الفريقان يوم الخميس متهيئين للقتال.

لقد كان يوم الخميس الخامس من شعبان سنة ١٠٧٠هـ يوم المعركة الفاصلة، ففي صباحه زحف الجيشان حتى كادت خيل السلطان تلتقي بمقدمة جيش الصفي أحمد، وهناك بدأت المعركة ونشب القتال واحتدم الصراع، وكان جيش الإمام من القوة والكثرة بحيث لا تمكن المقارنة بينه وبين جيش السلطان بدر، ومرت بالجيشين ساعة رهيبة كان الصراع فيها على أشده، وشعر جنود السلطان بضعفهم أمام الجيش المهاجم، فاضطروا إلى التقهقر وتبعهم جيش الإمام يثخن في القتل ويأسر من قدر عليه، ونجا السلطان في جماعة من أصحابه إلى هينن، وتفرقت كل قبيلة ذاهبة إلى بلادها.

❖ السلطان يطلب الأمان:

تقدم الصفي أحمد إلى «المخينيق» بالقرب من هينن حيث جاءه رسول من السلطان بكتاب منه يطلب فيه الأمان، فرفض قائد الجيش وأمر بحصار السلطان في قلعة هينن، ولكن السلطان بدر فر منها إلى وادي جعيمة بالقرب من شبام، فدخلتها جنود الإمام بعد أن غادرها، فاستولت على جميع ما فيها من المؤن والذخائر والخزائن ولم يتركوا سوى ما يختص بالنساء من الحلي والكساء وغيره.

وسار الصفي على رأس جيشه ليلاً وأصبح في موضع يسمى «حذية»

بالقرب من شبام، وجاءه أهالي شبام يطلبون الأمان فأمَّنهم، ودخل المدينة يوم السبت ٧ شهر شعبان، وأقام في شبام ثمانية أيام قدمت عليه أثناءها وفود أهالي تريم وسيئون وعينات ومريمة وتريس والغرفة وسائر آل كثير، فأرسل إلى حصون هذه المدن وغيرها من يتسلمها ويحتلها باسم الإمام.

وغادر الصفي أحمد شبام يوم الإثنين متجهاً إلى سيئون عاصمة السلطنة، وهناك جاءته رسل السلطان مرة أخرى بطلب الأمان فأمنه على نفسه وولده وأهل بيته، وقدم عليه السلطان بدر يوم الجمعة ٢٠ شعبان فأحسن استقباله وبالغ في إكرامه وجهزه إلى اليمن لمقابلة الإمام بناء على طلب السلطان وأصحبه بسبعين من الجنود وعشرين فارساً، فلما وصل إلى اليمن أنزله الإمام في دار خاصة به هيأها له وأجرى عليه وعلى أصحابه النفقات الواسعة، وأهداه خيلاً وخلعاً ونقودا كثيرة، وقد أقام هناك حتى اشتاق إلى حضرموت فاستأذنه في العودة إلى سيئون فأذن له، فأقام بها إلى أن مات سنة ١٠٧٥هـ.

وبعد أن تم للصفي أحمد الاستيلاء على داخل حضرموت، أرسل حملة مؤلفة من ستمائة جندي تحت قيادة بدر الدين بن جميل للاستيلاء على الشحر أهم مدن الساحل، وأرسل معه الأمير علي بن بدر بن عمر ليكون حاكماً عليها من قبل أبيه السلطان بدر بن عمر الذي أمر المتوكل بإعادة السلطنة إليه، ولم تلق الحملة في طريقها أية مقاومة فقد أظهر المسؤول عن الشحر الطاعة وسلم إليهم الحصن وشؤون المدينة والميناء.

ويقول الجرموزي: إنه كان يوجد بالشحر وقت وصول الحملة من زوارق الصيد ما ينيف على خمسمائة، وإنه يوجد بها من البانيان - البراهمة الهنود - نحو ثلاثمائة، ويقول: إن الحموم في ضواحي الشحر كانوا يقطعون الطريق ويعكرون جو الأمن في حين لا تستطيع حامية الشحر القليلة إخضاعهم.

وينقل الجرموزي أيضاً عمن صحب الصفي أحمد في غزوة حضرموت فيقول: إن وادي حضرموت وادٍ عجيب واسع طويل، كله عمارات ونخيل ومزارع تتصل من شبام إلى «المسفلة»، وهي حد المهرة يقطعه البريد الناهض في ثلاثة أيام، ثم ذكر شبام فقال عنها: مدينة كبيرة يظهر عليها أثر الضعف؛ بسبب توالي أيدي الجائرين عليها، وفيها جامع عظيم وحولها نخيل واسع وأنهار - كذا - ومزارع أكثرها لآل كثير، ولما ذكر سيئون قال في وصفها: مدينة عظيمة وفيها جامع ومساجد وعليهن أوقاف ووظائف.

❖ بدر بن عمر يستعيد سلطنته:

انتهت مهمة الصفي أحمد في حضرموت باحتلال جيوشه لجميع المناطق التي كانت تخضع للسلطان بدر بن عبدالله وتسليمه شؤون المملكة إلى السلطان بدر بن عمر تنفيذاً لأمر أمير المؤمنين واعتقال كل من اشتبه فيه، ثم أعد عدته للعودة إلى اليمن بعد أن وزع العمال في المدن الحضرمية ونصب القضاة وجمع الزكاة وحرّم الملاهي وكل ما لا يقره مذهب الزيدية، ونودي بأن يزاد في الأذان «حي على خير العمل» تطبيقاً للمذهب الزيدي في صيغة الأذان، ومنع الناس في تريم من إقامة الذكر المعروف براتب السقاف.

أما ظفار فلم يتمكن الصفي أحمد من المسير إليها، ولكنه اتفق أن صاحب النعمان أرسل إليها أربعمائة نفر بقيادة رجل يدعى عامر بن أحمد فغلبوا السلطان جعفراً واستولوا على البلاد بأجمعها، وكتبوا بذلك إلى الصفي أحمد وأظهروا له الطاعة، فاكتفى منهم بذلك وأقرهم على ما هم عليه، ويقول الجرموزي: إن أهل النعمان هؤلاء يتمذهبون بمذهب الخوارج، فيكرهون أهل البيت كما يكرهون أهل المعاصي.

وتحرك الجيش اليماني عائداً إلى بلاده، وتسلم السلطان بدر بن عمر شؤون سلطنته فمضى فيها كعادته في حب الخير وبسط العدل والولاء لأئمة

الزيود، ثم سافر بعد سنتين لأداء فريضة الحج وزيارة المدينة المنورة، فتوفي بالمدينة سنة ١٠٧٣هـ، فأمر الإمام بأن يخلفه في السلطنة ابنه محمد المردوف فتولاها إلى أن مات سنة ١٠٨٠هـ، وكان محمد هذا حازما صًارماً شديد الوطأة على العشائر المتسلحة، وقد أعمل بطشه وتنكيله بالشنافر من آل كثير بأقل حق وأدنى سبيل لقيامهم مع السلطان بدر بن عبدالله ضد أبيه، وأضعف ما لديهم من شوكة حتى ألحقهم بمستوى العزّل من السلاح.

❖ اختفاء السلطنة الكثيرية:

في أوائل القرن الثاني عشر الهجري كان الناس في حضرموت منقسمين إلى قسمين:

فريق يجنح إلى الزيدية ويفضل سلطة الأئمة وهم أتباع آل علي بن عبدالله بن عمر، وفريق يؤيد سلطة الشوافع من يافع التي تعضد السلطان بدر بن محمد المردوف ويعضدها، وكان بدر بن محمد هذا شاعراً بضعف مركزه أمام التيارات المتعاكسة في سلطنته ولم تبق لديه قوة غير قوة الجنود من يافع التي أصبح هو نفسه تحت سيطرتها، وانتقضت البلاد كلها عليه، وعارضه كثير من بني عمه، فرأى أن يستزيد من الجنود اليافعيين ليستعين بهم في حفظ مركزه المتزعزع، فذهب إلى يافع وقدم بستة آلاف مقاتل منهم، واستولى بهم على جميع حضرموت سنة ١١١٧هـ.

ولكن هؤلاء الجنود الذين استقدموا لتعزيز الدولة الكثيرية وتعضيدها وجدوا الفرصة سانحة والظروف مهيأة للتغلب على الحكم في البلاد وزحزحة الدولة الكثيرية عن مراكزها في داخل حضرموت وساحلها.

واشتدت الخصومة سنة ١١١٩هـ بين آل بدر بن عمر يرأسهم السلطان بدر بن محمد المردوف وبين آل عبدالله بن عمر برئاسة السلطان عمر بن جعفر بن علي بن عبدالله بن عمر، وكان هذا حاقدا عًلى يافع لتدخلهم في

شؤون السلطنة الكثيرية، فحاول عدة محاولات لإيقاف التدخل اليافعي عند حد فلم يستطع، واضطر أخيراً إلى السفر من حضرموت يائسا حَيث توفي بمسقط من أرض عُمان.

ولم تطل حياة بالسلطنة الكثيرية بعده، فقد قضي عليها تماماً واختفت من الوجود في عهد ابنه جعفر بن عمر منتصف القرن الثاني عشر الهجري وأصبحت حضرموت في يد عشائر يافع، الذين كونوا لهم سلطات متعددة في كثير من مدن وقرى الساحل والداخل، وفي الوقت نفسه كان لغير يافع من القبائل والسادة والمشايخ نفوذ محدود، داخل مناطقهم التي يسكنونها.

وكانت هذه المدن والقرى الآتية تخضع لنفوذ يافع مباشرة في تريم آل لبعوس، وفي سيئون آل الضَّبي، وفي تريس آل النقيب، وفي مريمة آل البكري، وفي جِفِل آل الرباكي وآل النقيب، وفي شبام الموسطة، وفي غيل بن يمين الشناظير، وفي ريدة المعارّة كَلَد، وفي حورة آل النقيب، وفي حريضة ابن بريك، وفي لحروم القعيطي، وفي سدبة الجهوري، وفي الهجرين آل يزيد، وفي القزة آل البطاطي، وفي الشحر آل بريك، وفي المكلا آل الكسادي.